صحائف المجد والخلود

الفن المصرى القديم

— ٢ —

قد يكون من بعض الاسباب التى يقوم عليها عذر اولئك المنكرين لفضل الفن المصرى على أنه أساس الفنون الأخرى ، ان الفن المصرى هو فن فذ ، ذوأسلوب فريد يختلف عن بقية الفنون ، يجعله كما يعتقدون — أو يتوهمون — جافاً ليس حراً . أو أنه فن محلى بحت لقيامه على قواعد وشروط خاصة ، أو نظام قومى لايتعداه ، يجعله غير مألوف لأعين الأمم الاخرى ، أو غير متوافق مع مزاج كل أمة لشذوذه عن المعروف عندها . بخلاف الفن الاغريقى .فهو فن متفق مع جميع الفنون الأخرى فى الغرض والاسلوب . أوهو فن دولى ، فهو لذلك الفن الجدير الصادق. ولهذا أغضروا عن الفن المصرى القديم ، وقام فى أعينهم مكانه الفن الاغريقى كأساس لكل فنون العالم ، وذهبت هذه الفكرة الواهية بعالم الحقيقة .

وسأحاول أن أدافع عن هذه الحقيقة ، وأقاوم تلك الفكرة التى لاينبغى أن تلبس العقول . وقد أتمنى أن أوفق لاثبات الجدارة للفن المصرى القديم ، وللتدليل على أنه الأساس ، إن لم يكن لكل تلك الأساليب من الفن التى يبهرها الغربيون أعيننا الآن ، فلا أقل من أن يكون صاحب الفضل على جميع أقوام العالم فى تدريبهم على كيفية رسم المجسمات وعلاج الألوان . أو أن يكون قد وضع النموذج المبدئى فى كيف ترسم اليد جسم الانسان رسما صحيحاً ، وكيف تتقن تصوير أعضائه وتمثيل عضلاته . ثم كيف بعد ذلك يتخير ذوق الانسان الألوان التى تتناسق وتتفق تحت العين .

ارتباط الفن بالدين :

ان فنون العالم ، وقد بدأت كلها حياتها فى خدمة الديانات ، وفى تحقيق أغراضها المختلفة . تدرجت المثل بها كلما تقربت الأمة الى فهم معانى الجمال ، وتوغلت فى أساليب المدنيـــة ، الى طرح التقاليد الدينية جانباً . وتخطتها الى التعبير عن الأغراض الدنيوية ، والكشف عن اسرار الطبيعة بما فيها من جمال وروعة . فاتفقت كلها على أن تعطينا أخيراً تلك الخلاصة البارعة فيما تتمتع به اليوم من مبدعات الفن .

الا الفن المصرى القديم . فانه ظل للديانة المصرية خادما أمينا ، محافظا على غايته واغراضه مدى الخمسين قرنا الطويلة التى عاشها فى التاريخ . ولم يحن عهوده يوما ما ، ولم يتزعزع عن خدمة الديانة حتى فى أنشط أدواره ، فى غضون عصر الاسرة الثامنة عشرة عندما جنحت الفكرة بفن تل العمارنة الى الاغراق فى تزويق القصور.

ومن ذلك كان الفن فى كل أدواره مرتبطا مع الدين برباط وثيق . يتأثر تبعا للانقلابات الدينية ، أو لحركات العبادة ذاتها . أو قل ان الكهنة كانوا غالبا يسيطرون على دقة الفن ، فيوجهونها حيثما شاءوا ، بحسب العقيدة والاهواء الدينية . لما كان للكهنة من سلطة عظيمة فى البلاد ، تقارب سلطة الملك ذاته ، بل ان سلطتهم كانت فى بعض الاحيان ، تفوق سلطة الملك .

ولكن الفن الذى تركه لنا أولئك القدماء ، أعطانا ، مع ذلك ، اخر مايشهد بقدرتهم وكفايتهم ، وأصدق مايعبر عن نضوج اذهانهم واكتمالها . بل أعطانا فى كل أسبابه شواهد لاتحصر من البراعة والسمو والابداع ، مع وافر من الرشاقة والجمال . فى حين أن كل فن ، قام أو يقوم بخدمة الديانة بعده ، وقف طويلا فى طريق الجمود ،

ونازعك على خبزك ، واتخذك عبداً له ؟ لاأحسبك من البلاهة بحيث تقول ان الجلاد الذى يعذب السجين ويشوى جلده بالسياط هو أخوه

ـ انك تهدم الاخلاق من اساسها !

ـ ذلك خير من أن تهدم امتى التى تبنى الآن . ولست من رأى الدكتور الذى بحث عن الحقيقة فى شعب يبحث عن الخبز . وقد يأتى يوم يصبح فيه من الشهداء . ينصب له تمثال . اما الآن فليس الاخائنا

* * *

ولم يعد يطيق البقاء بين هؤلاء السخفاء الذين يذبحون امتهم بسيف من الذهب . . . فخرج من النادى والسماء تهبط على الارض . فى رعد وبرق ، ففتح فاه ونشق الهواء الطلق ، وصاح صيحة النشوان:

ـ بهذه الثورة السماوية ، تكون حياة الأرض . .

دمشق — على الطنطاوى